قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

وسطاء شرّ أبرياء

هذه قصة ثيُوبُلد إسميث Theobald Smith . قصة الرجل الذى قاد الانسانية فالت معه حيث مال إلى طريق جديد طلع عليها بأمل جديد. كان أولَ أمريكى سبق إلى كشف المكروب، ولم يلحق بغباره إلى الآن منهم لاحق . أخذ يتشمّم الأرض يطلب غاية، ويستتبع أثراً يقود إلى عين، وأفاد فى تتبعه هذا من رأى رآه الفلاحون، وظِنّة قال بها بسطاء المزارعين، فلم يلبث بواسطتها أن اطّلع من بحوثه على كل عجيبة غريبة. فهذه القصة ستنبئك بالذى اطّلع عليه إسميث، وبالذى وجده من بعده من تعقّبوا آثاره

« إن فى استطاعة الانسان أن يمحو كل داء وبىء من على وجه الأرض » . هكذا قال بستور وبهذا تنبأ وهو مفلوج بعد نُصرته المهودة على داء دودة القزّ التى أكسبته ذكراً وأنالته مجداً . ولعلك تذكر بأية قوة وأية حرارة ألقى هـذا الأمل فى الناس، حتى لحسبوا أن الداءات المُعْديات لا يهلّ عليها العام القابل أو على الأكثر الذى يليه حتى تكون خبراً يُروَى . واطمأن الناس لقوله واستبشروا وأخذوا يرقبون ما تأتى به الأيام ... واخترع بستور الألقحة فهتفوا له عالياً، وكانت هذه الألقحة لا شك بدائع عجيبةً رائعة، ولكنك لا تستطيع القول أنها كانت لاستئصال المكروب من على ظهر البسيطة . وجاء من بعد بستور كوخ فأدهش الناس وأفزع عندما لعب بجرثومة السل المخُوفة حتى وجدها . ولم يكن كوخ أسرف فى وعوده، ولكن وعود بستور كان صداها يرن فى الآذان، فرفع الناس أبصارهم إلى كوخ ينتظرون امّحاء السلّ على يديه . وجاء رو، وجاء بارنج، واشتبكا والدفتريا فى معركة حامية دامية دامت سنين، هَدْهدت أثناءها الأمهات أطفالهن المناكيد، وغنّتهم أغانى آملةً راجيةً تَمِلّةً ومصابرةً عسى يسبق العلمُ بالشفاء أيامَهم الباقية المعدودة. وجاء متشنيكوف، ومن الناس مَن ضحك منه، ولكن حتى هؤلاء أضمروا فى الخفاء أملاً قليلاً على الأقدار تُتيح له برغم ثرثرته أن يُسلِّم فاجوساته أكل جراثيم الأرض جميعاً

. . . نعم أخذت وطأة الأمراض لسبب مجهول تخف على ما أحسب، ولكن لم يظهر عليها أنها تنوى الرحيل وتستعجل الفراق الذى أمّله الناس، فخاب ظنهم وظلّوا على أملهم يرتقبون

ولم يطل ترقّبهم، فالزمان الذى يجود بالرجال الفَينة بعد الفينة جاد لهم وهم فى أزمتهم هـذه برجل جديد شاب، اسمه ليوبلد إسميث Leobald Smith، ظهر فى أمريكا فى أوائل عشر السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر؛ وحكاية ذلك أن الأبقار فى شمال أمريكا الشمالية كانت تُرسَل جنوباً فلا تلبث أن تستقر هناك حتى تأتيها حُمّى تعرف بالتكساسية(١) فتمرض وتموت . وكذلك كانت تُرسَل الأبقار من الجنوب إلى الشمال وهى صحيحة سليمة فكانت كأنما تبذر على أرضه حيثما وطئت بذوراً للموت تفتك بالأبقار الشمالية فتكاً ذريعاً . فجاء إسميث وفسر هذا وهـذا، وكتب فى عام ١٨٩٣ تقريراً بيّناً كشف للناس فيه سر هـذه الظواهر الغامضة، وسلك به أقوم الطرق وأخصرها، ولم يكن فيه طنطنة ونفخ أبواق، وهو لا يُشترى الآن لنفاد طبعتـه . فهذا التقرير أوحى إلى قُنّاص المكروب الذين أتوا من بعده بالشىء الكثير: فأوحى بفكرة بديعة إلى الفخور الصخاب دافيد بروس David Bruce، وبلمحات من اقتراحات نافعة إلى باتريك منسون Patrick Manson، ومسّ بقبَسه رأس العبقرى الطليانى الغضوب جراسى Grassi فجرت النار فى أفكاره اشتعالاً . والأمريكى ولتر ريد Walter Reed، ملأه هذا التقرير ثقة، وملأ كذلك رجاله الأبطال من عساكر وضباط، فقاموا بمغامراتهم الخطيرة فى اطمئنان كبير، ورفضوا زيادة فى الرواتب وآثروا عليها الشهادة والتضحية فى سبيل العلم

(١) نسبة إلى تكساس وهى ولاية من الولايات المتحدة فى أقصى الجنوب تجاور المكسيك وتقع على خليجه

فأى رجل كان إسميث هذا الذى يجهله الأمريكيون إلا آلافا قليلة ؟ وكيف أن كشفا له عن مرض فى بقرة استطاع أن يحرك فى البشر كل هذه الآمال والأحلام ؟ وما منطق الربفيين هذا الذى ابتدأ به إسميث فحققه وأثبته ، والذى من جرائه استطاع أن ينير للبحاث من بعده الطريق التى يسلكونها ليحققوا بها أمل البشرية المنشود ، ووعدها الأكبر المطلوب الذى وعدها إياه بستور ؟

— ٢ —

فى عام ١٨٨٤ كان إسميث فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وكان نال درجة بكالوريوس فى الفلسفة من جامعة كُرنيل Cornell (١) ، وكان نال درجة دكتور فى الطب من كلية ألبَنى (٢) Albany medical College ، ولكنه كره أن يقضى حياته فى تشخيص أمراض يلبس لها وجه الجادّ العابس وهو يعلم أن لا رجاء فى شفائها ، وأن يُذبل زهرة أيامه فى بذل الطمأنينة والسلوى والكلام الحلو الراجى لمرضى بنى الناس عوضاً عن بذل العلاج الناجع الذى لا يعرف له وجودا . واختصاراً تراءى له الطب والطِّبابة أنهما عمل مهوّش لا يستقيم مع العقل السليم . وأحب أن يضرب فى المجهول قليلاً ليعلم من خفاياه قدراً يستطيع حمله فلا ينوء به ظهره ، أو يُتخَم به عقله . كان طبيباً ولكنه شاء برغم هذا أن يكون باحثاً ، ورغب بخاصة إلى دراسة المكروب . وكان قد عُنِى وهو فى كُرنيل باللعب على الأرغون ، لَعِبَ عليه المزاميرَ وقطعاً من بيتهوفن (ولم يكن جاء زمن الجاز بأبد) . وفى كرنيل فى جامعتها عبَّ عبّة طبية من الرياضيات ومن علم الفيزياء ومن اللغة الألمانية ، وبخاصة اشتد ميله إلى النظر فى المكرسكوبات ، ولعله عندئذ نظر أول مكروبة رآها

ولكنه لما جاء مدرسة الطب فى ألبَنى Albany لم يجد فى أساتذتها اهتماما بالمكروبات ، فلم يكن أطباء هذا المعهد يَعْمِدون فى شفاء الأمراض إلى قتل الجراثيم . ولم يكن فى المدرسة برنامج لدراستها ، بل لم يكن فى أى مدرسة طبية بأمريكا شىء من هذا ، وأراد أن يتعلم علم الجرثوم برغم كل هذا ، وكان لا يأبه لألوان العرفان التى كانت تتعاطاها الجهرة من طلاب الطب ، وكان يحتقر التخرّصات والأكاذيب التى يسبلون عليها رداء العلم . وأشبع هَوِيَّته يبحث أحشاء القطط بحثاً مكرسكوبياً ، ونشر أول رسالة له فى ذلك ، وفيها أبان اختلافات للطبيعة خرجت بها فى أعماق بطون القطط عن المألوف الذى درجت عليه فى سائر الأحياء ، وعلق عليها حواشى دلّت على الفطنة وحدة فى الذهن شديدة ، وكانت أول عمل دخل بفضله فى زمرة البحّاث

ونال درجته الجامعية ، وأراد أن يتخذ التجريب العلمى صناعته ، ولكن تحتّم عليه قبل ذلك وفوق ذلك أن يرتزق ليعيش . وكان فى هذا الوقت كثير من أطباء أمريكا الأحداث يتسابقون إلى أوربا ، إلى الأستاذ الكبير كوخ Koch يودون أن تتاح لهم الفرصة ليقفوا وراء ظهره ، ويتعلموا من فوق كتفه كيف يصنع البشلاّت وكيف يُربيها صريحة ، وكيف يضربها بالمحاقن تحت جلود الحيوانات ، وكيف يستطيعون من بعد ذلك أن يتحدثوا عن المكروبات حديث الخبير الضليع . ورغب إسميث أن يتبعهم ، ولكن تحتّم عليه أن يبحث عن وظيفة ليعيش . ورحل هؤلاء الأطباء الشبان الأثرياء الى أوربا ، وبينما هم يأخذون من العلم الجديد بمبادئه الأولى ، وبينما هم يوشكون من أجل ذلك أن يقعوا على مناصب أستاذيات فى العلم هامة ، وقع إسميث على وظيفته التى طاب . وكان منصباً وضيعاً هذا الذى ناله ؛ ومن وجهة العلم لم يكن منصباً محترما ، فقد تعين فى مكتب اصلاح الماشية والحيوان بواشنطن Washington ، ولم يكن عندئذ إلا مكتبا صغيرا حقيرا فقيرا لا يكاد يأبه له أحد . وكان فى المكتب من المستخدمين ثلاثة غير إسميث ، وكان على رأسهم رجل طبيب يُدعى سلمون Salmon ، كان كثير الاهتمام بما عسى أن تصنعه الجراثيم من السوء للأبقار ، مؤمناً شديد الايمان بخطر البشلاّت على الخنازير ، ولكنه جهل كل الجهل كيف يتصيد المكروبات التى تعيث فى هذه الماشية الثمينة . وكان فى المكتب السيد كلبورن Kilborne ، وكان يحمل درجة بكالوريوس فى الزراعة ويغتبط بها ، وكان يعرف بعض الشىء فى البيطرة ، وهو الآن يتاجر فى الصيني وما اليه بمكان قريب من نيويورك . وكان ثالثَ الثلاثة فى المكتب رجلٌ جسيم

(١) جامعة فى مدينة إثاكا Ethaca فى مقاطعة نيويورك فى الشمال الشرقى من الولايات المتحدة . وقد سميت باسم أكبر متبرع لانشائها

(٢) عاصمة مقاطعة نيويورك بالولايات المتحدة

مُهيب عتيق أسود كان عبداً فأُعتق، وكان اسمه اسكندر، وكان يجلس حيثما جلس رزينا وقورا ساكنا حتى يُحرَّك، فيقوم الى القنّينات القذرة فيغسلها، أو الى الخنازير الغبية فيُعنى بها

وبدأ إسميث فى صيادة المكروب فى حجرة فى ذروة بيت حكومىّ أضاءها شباك واحد مفتوح فى سقف البيت. بدأ فى صيادة المكروب، فبدأ عمله الأوفق الذى هيأته الطبيعة له. وجاءته هذه الصيادة سلسة منقادة فكأنما ولدته أمه وبيمينه يحقَن وبفمه عود من البلاتين. وعلى الرغم من أنه خريج جامعة فقد كان يقرأ اللغة الألمانية قراءة جيدة، فكان فى الليل يعتكف الى دراسة ما صنع كوخ من المكروبات وصار يعبّ من مآثره العلمية المجيدة عبا. وكان كالبُطَيطة نزلت فى الماء لأول مرة. فأخذ يعمل بالتفصيل كل ما فعله كوخ من قبله ويقلده تقليداً ويتبع طرائقه اللبقة فى تربية الجرثوم واقتناص البشلات وتلك الخلائق العجيبة الأخرى التى تسبح فى الماء انفتالا كأنما هى نَزِعة الفلين جرت فيها الحياة. قال: «إن كل ما صنعت مرجعه إلى كوخ»، وتصور كوخَ فى بعده وعبقريته شيئاً سماويا قدسيا

وعَمِل فى حجرته السقفيّة بلا هوادة ولا حسبان لضعف جسمه، وقام على صيادة المكروب كل يومه وطرفا من ليله. وكانت له أنامل دقيقة رقيقة مَرِنة كأنامل الموسيقى فساعدته على غَلْى الأحسية فتندر انكبابها فى يديه. وكانت الى جانب حجرته حجرة أخرى يُختزن فيها المتاع الخسيس، وكان يخرج منها اليه قُطُر من الصراصير لا تنقطع فيتلهى فى أوقات فراغه بدقّها. وفى وقت قصير بالغ القصر علّم نفسه كل ما يتطلبه البحث، ثم بدأ يكتشف الكشوفات على حذر، فاكتشف لقاحا غريباً مأمونا، لا يحتوى على البشلات نفسها، ولكن على عصاراتها الزلالية التى تُبتزّ منها اعتصارا وترشيحا. واشتد الحر فى غرفته فزاد على حر المدينة وهى جهنم الحمراء، ولكنه احتمل هذا ومسح العرق المتقطّر من أنفه، وظل يعمل على أسلوب كوخ الأدقّ الأحذر، ونبا به طبعه عن أسلوب بستور الأخشن وطرائقه الفضفاضة

(يتبع) أحمد زكى

سقطة ناقدة يهملها النقد العربى

نقد ابن أبى عتيق

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

للأستاذ خليل هنداوى

ذكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر عند ابن أبى عتيق فى مجلس رجل ففضل الرجل شعر الحارث. فقال ابن أبى عتيق: بعض قولك يا ابن أخى! لشعر عمر نوطة فى القلب، وعلوق بالنفس، ودرك للحاجة ليست لشعر. وما عُصى الله بشعر أكثر مما عُصى بشعر عمر أشعر قريش، من دق معناه، ولطف مدخله وسهل مخرجه، ومتن حشوه، وتلطفت حواشيه، وأنارت معانيه، وأعرب عن حاجته. وذكر الرجل المفضل أبياتا للحارث ينعت بها الطلل:

إنى وما نحروا غداة منى عند الجمار يؤودها العقل
لو بدلت أعلى مساكنها سفلاً، وأصبح سفلها يعلو
فيكاد يعرفها الخبير بها فيرده الأقواء والمحل
لعرفت مغناها بما احتملت منى الضلوع لأهلها قبل

فقال له ابن أبى عتيق: «استر على نفسك واكتم على صاحبك، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا! أما تطير الحارث عليها حين قلب ربعها فجعل عاليه سافله. ما بقى إلا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارة من سجيل» فتأمل ما ألطف هذا المأخذ، وصاحب هذه الأبيات — فى الحقيقة — قد سار إلى غاية شريفة من معناه. ولكن المبالغة أفسدت عليه غايته؛ وإن معرفة الدار وإظهار الشوق لأهل الدار لا يحتاجان إلى قلب العالى أسفل والسافل أعلى؛ وإن فى هذا تذيراً أدنى إلى الشؤم منه إلى إظهار الشوق. ولعن الله شوقا لا يثبت نفسه إلا على الركام والخراب!

ولقد كان يقتحم شعر عمر بنقده — على رغم الصداقة — ويضربه فى الصميم. ألم يسمع عمر يقول:

بينما ينعتننى أبصرننى دون قيد الرمح يعدو بى الأغر